

محمد بن إدريس الشافعي - في مصر

د. محمد عبد المنعم خفاجي (*)

(١)

في يوم الخميس أول ربيع الثاني عام ١٩٩ هـ التاسع عشر من نوفمبر عام ٨١٤م أي منذ نحو إثني عشر قرناً ميلادياً وفد على مصر الفسطاط من مكة المكرمة عالم قریش وأمامها محمد بن إدريس الشافعي، ومعه ابنه أبو عثمان محمد (-٢٣٢هـ)، ومعه كذلك زوجه حميدة حفيدة الخليفة الثالث عثمان بن عفان، رضى الله عنه، وبناته زينب وفاطمة، وذلك للإقامة الدائمة فيها، وكان في ركبته تلميذه أبو بكر الحميدي (-٢١٩هـ).

وكانت شهرة محمد بن إدريس العلمية ملء الأسماع والبقاع، فالعالم الإسلامي كله يذكره بالخير والتقدير والإكبار. وصادف دخوله الفسطاط دخول نائب إلى مصر الجديد، الأمير العباسي، عبد الله بن عباس بن موسى، وكان الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) قد ولي العباس بن موسى على مصر، فبعث ابنه عبد الله إلى الفسطاط نائباً عنه في حكم البلاد فدخلها في اليوم الذي دخل فيه الشافعي مدينة مصر وعاصمتها، وقبله الإسلام فيها، الفسطاط. ونزل ابن إدريس فيها على أخواله من الأزد، ثم كان في ضيافة عبد الله ابن عبد الحكم القرشي (١٥٥-٢١٤هـ)، وهو صديقه وزميله في طلب العلم في حلقة الإمام مالك، رضى الله عنه، في المدينة المنورة.

وأخذ ابن إدريس يتردد على جامعة، أو جامع، الفسطاط، للصلاة ولحضور حلقات العلم فيه وكان أبو رجب الخولاني العلاء بن عاصم يتولى إمامة الجامع العتيق، جامع عمرو، أو تاج الجوامع، ويلقي قصص السيرة والفتوح، في إحدى حلقاته، وكان الشافعي يصلي خلفه، ويقول فيه : ما صليت خلف أحد

(*) أستاذ الأدب العربي - جامعة الأزهر.

أتم صلاة من أبي رجب (١) ..

وها هو ذا ابن إدريس عالم قريش ، " الذي ملأ طباق الأرض علما " كما وصفه الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ) يجلس في جامعة الفسطاط ، في حلقة علمية خاصة به ، ومن حوله ابنه أبو عثمان ، وتلميذه الحميدى ، ومحمد (١٨٢ - ٢٦٨ هـ) ابن صديقه القرشي عبد الله بن عبد الحكم ، وكان محمد كأبيه مالكيًا ، ولكنه انس بالشافعي ، ووثق بعلمه ، ورغب في الإفادة منه ، فأخذ يتردد على حلقة صديق أبيه ، وخاف المالكيون ذلك وأنكروه ، لما فيه من وضوح الانصراف عن المذهب إلى مذهب الشافعي ، وشكوا إلى أبيه فأخذ يخفف من حدتهم ، ويهدئ من ثورتهم ويقول لهم إن ابني محمدا شاب صغير ، يجب أن يستمع إلى الآراء وأن يناقشها .

ثم كان إذا انفرد بإبنه يقول له : يا بني ، الزم ابن إدريس ، وكان عبد الله ابن عبد الحكم إمامًا جليلاً ، تصدر زعامة المذهب المالكي وتدرسه في جامعة الفسطاط ، وألف كتباً فيه ، وأبناؤه الثلاثة : عبد الحكم (٢٣٧ هـ) ومحمد (٢٦٨ هـ) ، وعبد الرحمن المورخ ، كانوا نجوم الفسطاط ، ملأوا آفاقه علماً وفضلاً ، وقد جلسوا في حلقة ابن إدريس ، وأفادوا من علمه ، وكان عبد الرحمن من أحرصهم على التردد عليها وكانت أسرة عبد الحكم في الفسطاط أسرة جاه ومجد وعلم يأوى إليها العلماء والأدباء والشعراء ويستظلون بظلها ويلقون الكثير من برهم وكرمهم .

وتعهد ابن إدريس بالرعاية ، وكذلك السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور حفيدة زيد بن الحسن بن علي (١٤٥ - ٢٠٨ هـ) وكانت قد هاجرت إلى الفسطاط عام ١٩٣ هـ ، وأقامت فيه ، فراراً من اضطهاد العباسيين للبيت العلوي ، وظلت في مصر هي وزوجها : إسحاق بن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنهم ، وعاشت في الفسطاط خمسة عشر عاماً إلى أن وافاها الأجل عام ٢٠٨ هـ ، وكانت حفاؤها بابن إدريس لا تعادها حفاوة .

ورأى الناس عالماً من قريش ، يجلس في جامعتهم للتعليم ، يصلي فلا يرون

(١) ١٣٥ ، ١٣٦ ج ٢ - حسن المحاضرة للسيوطي .

أحسن صلاة من صلاته ، ويتحدث فلا يسمعون أعذب حديثاً من حديثه ، مع صباحة وجهه، وواسع كرمه، وعلو كعبه، فإفتنوا به، وواظبوا على الجلوس في حلقة وخف إلى مجلس بن إدريس العلمي في جامعة أو جامع الفسطاط : البويطى (٢٣١ هـ) والربيع الجيزى (٢٥٦ هـ) ، والمزنى (٢٦٤ هـ) ، والربيع بن سليمان المرادى (٢٧٠ هـ) ، ويونس بن عبد الأعلى (١٧٠ - ٢٦٨ هـ) ، وغيرهم .

واتسعت حلقة اتساعاً كبيراً ، حيث أخذ الشافعي يلقي محاضراته في الفقه وأصوله وفي التفسير والحديث ، وفي اللغة والأدب على الطلاب ، وعلى عليهم رسائله وكتبه .

ومع أن حلقات العلم في جامعة الفسطاط كانت : كثيرة وكبيرة إلا أن حلقة ابن إدريس كثر طلابها ومريدها كثرة مذهلة ، وصارت بكثرة المترددين عليها أكثر الحلقات، وأعظمها أثراً في خدمة الدين واللغة والأدب .

وكان ابن هرم يكتب للأستاذ الجليل ابن إدريس ، والبويطى يقرأ له الدرس والطلاب يسمعون ثم يكتبون ، وفي زاوية الخشاية بالمسجد الكبير - الجامعة الإسلامية الأولى في مصر - التي عرفت بزاوية ابن إدريس كان نسكه وعبادته - وكان يجلس فيها ليكتب ، ومن حوله تلاميذه ومريده .

ولما وقف الإمام الشافعي على قبر الليث بن سعد (٩٣ - ١٧٥ هـ) ، قال : لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يحزنهن عالم ، العلم والعمل والزهد والكرم وكان يبدأ دروسه بالقرآن وتفسيره ، ثم بالحديث وعلومه ، ثم بالفقه وأصوله ، ثم بالعربية وعلومها .

وكان يقول : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر في الفقه نبيل قدره ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن نظر في الحساب جزل رأيه . وكان يناظر سرج الغول الشاعر الأديب في الأدب والشعر والنقد ، وكان لسرج حلقة أدبية كبيرة في الجامع العتيق .

وكان لابد أن يغضب المالكيون خوفاً على مكانتهم الروحية التي زعزع منها ابن إدريس ، إذ لم يصبحوا في الصدارة كما كانوا من قبل، حتى أن "فتيان بن أبي السمع" المالكى الفقيه ناظر الشافعي، وأسرف في اللدد والخصومة في مناظرته، ووجه

إلى ابن إدريس كلاماً لا يصح أن يقال له ، فعلم أمير مصر بالأمر ، فعاقب ابن أبي السمح عقاباً شديداً زاجراً ، وأخذ تلاميذ " فتیان بن أبي السمح " يطاردون كل من يذهب إلى حلقة الشافعي ، غضباً لأستاذهم ، وجاء عيسى بن المنكدر قاضي مصر فيما بعد على مدى عامين (٢١٢ - ٢١٣ هـ) إلى الأستاذ العظيم ابن إدريس يلقي عليه اللوم لأنه أحدث مذهباً جديداً ، ولكن الجماهير كانت بالمرصاد لكل من حاول أن يمس مكانة الأستاذ الجليل ، كما كان والي مصر " السري " (المتوفى عام ٢٠٥ هـ) بالمرصاد لابن أبي السمح حيث عاقبه عقاباً رادعاً .

وكان الإمام ابن إدريس يذكر مكة المطهرة في شوق كبير إليها ، ويذكر إمام بغداد أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ) بالشوق والحب و يقول : " لقد وعدني أحمد أن يقدم إلى مصر " ويقول لتلميذه يونس بن عبد الأعلى (٢٧٠ هـ) يا يونس أدخلت بغداد ؟ فرد عليه يونس : لا ، قال : ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس .

وكان ابن إدريس يقول عن ابن عبد الأعلى هذا : ما رأيت أحداً أعقل من يونس بن عبد الأعلى . وكان أحمد بن حنبل يقول في الشافعي : " كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس " ، ويقول عنه : ما علمت أحداً أعظم منة علي الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي ، ويقول ما رأيت أحد أفقه في كتاب الله تعالى من هذا القرشي .

(٢)

والشافعي ينتمي إلى هاشم بن عبد المطلب ، ويلتقي مع رسول الله في عبد المطلب ، وروى عنه قال : ولدت بغزة سنة خمسين ومائة يوم وفاة أبي حنيفة ، فقال الناس : مات إمام وولد إمام ، وحملت إلى مكة وأنا ابن ستين ، وكانت أمي من الازد .. عاش الشافعي مع أمه يتيماً عامين بين غزة وعسقلان .. ثم ذهبت به الأم إلى بلده مكة البلد الحرام ، فلما جاوز الرابعة من عمره أقبل على القرآن الكريم يحفظه ، وما أتم السابعة إلا وقد أتم حفظه وتجويده .

ويقص عن نفسه قصة حياته الأولى فيقول :

- " خرجت إلى البادية ، فلزمت هذيلاً ، أتعلم كلامها ، وأخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم

وأنزل بتروهم " .

ويقول محمد ابن بنت الشافعي : أقام الشافعي على تعلم علم العربية وأيام الناس عشرين سنة ، وكان يقول : ما أردت منه إلا الاستعانة به على الفقه . وكان يحفظ من شعر الهذليين وحدهم عشرة آلاف بيت ، عدا ما حفظه من شعر العرب وخطبهم وبلاغتهم .

أخذ في المسجد الحرام العلم والفقه عن أئمة الفقه والتفسير والحديث واللغة ، وجلس في حلقة مسلم بن خالد الزنجي ، مفتي مكة وفتيها (١٨٠ هـ) وسفيان ابن عيينة (١٩٨ هـ) شيخ المحدثين وكان سفيان يقول فيه : هذا أفضل فتیان أهل زمانه .

ويروى عن الشافعي أنه قال : " كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلحن الصبي الآية فأحفظها أنا ، ولقد كنت قبل أن يفرغ المعلم من الإملاء قد حفظت جميع ما أُملي ، فقال لي ذات يوم : ما يحل لي أن آخذ منك شيئاً ، قال : ثم لما خرجت من الكتاب كنت أتلقت أشياء ، أكتب فيها الحديث وأجىء إلى الدواوين فأستوهم منها الظهور (١) فأكتب فيها ثم إني خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها وأخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب " .

قال : " فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بتروهم ، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الأداب والأخبار وأيام العرب ، فمر بي رجل من الزبيريين من بني عمي فأرشدني إلى مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ (٩٤ - ١٧٩ هـ) فعمدت إلى الموطن فاستعرت من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهراً " قال : " ثم دخلت إلى والي مكة وأخذت كتابه إلى والي المدينة ، وإلى مالك ابن أنس ، قال : فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى والي فلما أن قرأه قال : يا فتى أن مشي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه ، فقلت : - أصلح الله الأمير - أن رأى الأمير أن يوجه إليه ليحضر قال هيهات ، ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي

(١) أي الأورق .

وأصابنا من تراب العقيق ما أصابنا لنلنا بعض حاجتنا ، قال : فواعدته العصر وركبنا جميعا ، فوا الله لكان كما قال : لقد أصابنا من تراب العقيق ما أصابنا . قال : فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير : قولي لمولاي إني بالباب قال : فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت : إن مولاي يقرئك السلام ويقول : إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب . وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها قولي له : إن معي كتابا من وإلى مكة إليه في حاجة مهمة قال : فدخلت وخرجت وفي يدها كرسى فوضعت ، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار فرفع إليه وإلى المدينة الكتاب ، فقرأ حتى بلغ : " إن هذا الرجل طالب علم فإن رأيت أن تلقاه فتحدثه وتفعل وتصنع " فرمى بالكتاب من يده ثم قال سبحان الله . أو صار علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يؤخذ بالرسائل ؟ .. قال : فرأيت الوالي تهيبه أن يكلمه فتقدمت إليه وقلت : - أصلحك الله - إني رجل مطلي وقد علمت تى ، فلما سمع كلامي نظر إلى ساعة وكانت للملك فراسة فقال لى : ما أسمك ؟ فقلت : محمد ، فقال لى : يا محمد : اتق الله واجتنب المعاصي ، فإنه سيكون لك شأن من الشأن . ثم قال : نعم وكرامة ، فإذا كان غد تجيء ويحيى من يقرأ لك ، قال : فقلت أنا أقوم بالقراءة . فعدوت عليه وابتدأت أن أقرأه ظاهرا والكتاب فى يدي فكلما تهيبت مالكا وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتى وإعراي فيقول يا فتى : زد حتى قرأته (١) فى أيام يسيرة ، ثم أقمت بالمدينة حتى توفى مالك بن أنس ، ثم خرجت إلى اليمن (٢) فارتفع لى بها الشأن وكان بها وال من قبل الرشيد ، وكان ظلوما غشوما وكنت ربما أخذ على يديه وأمنعه من الظلم ، قال : وكان باليمن تسعة من العلوية قد تحركوا - فكتب الوالى - إني أخاف أن يخرجوا وإن ههنا رجلا من ول شافع المطلي لا أمر لى معه ولا لى . قال فكتب إليه هارون الرشيد : أن أحمل هؤلاء وأحمل الشافعى معهم . فقرنت معهم قال : فلما قدمنا هارون الرشيد (٣) أدخلنا عليه وعنده محمد بن الحسن قال : ندعا هارون الرشيد

(١) أى للموطأ .

(٢) وإلى قضاءها بمساعدة مصعب بن عبد الله القرشى وتوصيته عند والى اليمن .

(٣) كان ذلك فى عام ١٨٤ هـ .

بالنطع (١) والسيف وضرب رقاب العلوية ، ثم التفت محمد أبو الحسن (١٢٢-١٨٩ هـ) فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا المطلب لا يغلبك بفصاحته فإنه رجل لسن ، فقلت مهلا يا أمير المؤمنين ، فإنك الداعى وأنا المدعو ، وأنت القادر على ما أريد منك . يا أمير المؤمنين ، ما تقول في رجلين أحدهما يراق أخاه والأخر يراق عبده أيهما أحب إلى ؟ قال : الذى يراك أخاه قال : قلت فذاك أنت يا أمير المؤمنين . قال فقال لى : كيف ذلك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين : إنكم ولد العباس ترونا أخوانكم وهم يرونا عبيدهم . قال : ففسره ما قلت به فأستوى جالسا فقال : يا ابن إدريس : كيف علمك بالقرآن ؟ قلت : عن أى معلومة تسألنى ؟ عن حفظه قد حفظته ووعيته بين جنبي وعرفت وقفه وابتدأه ، وناسخه ومنسوخه وليليه ونهاريه ووحشيه وأنسيه وما خوطب به العام ويراد به الخاص ، وما خوطب به الخاص ويراد به العام . فقال لى : والله يا ابن إدريس لقد ادعيت علما فكيف علمك بالنجوم ؟ فقلت إني لأعرف منها السرى من البحرى والسهلى من الجبلى . قال : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ قال : فقلت إني لأعرف أنساب اللثام وأنساب الكرام ونسب أمير المؤمنين ؟ قال : فذكرت موعظة لطاووس اليماني فوعظته بها ، فبكى ، وأمر لى بخمسين ألفا ، وحملت على فرسى ، وركبت بين يديه وخرجت ، فما أن وصلت الباب حتى فرقت الخمسين ألفا على حجاب أمير المؤمنين وبوابه .

(٣)

وبلغ الإمام الشافعي منزلة عالية ، إمامة فى الدين والفقه والأصول والحديث واللغة والأدب والشعر والنقد .

حدث الربيع بن سليمان قال : سمعت عبد الملك بن هشام النحوى صاحب المغازى والسيرة يقول : الشافعي من أفصح الناس ، وكان مالك تعجبه قراءته لأنه كان فصيحاً .

وحدث أبو عبيد القاسم بن سلام قال : كان الشافعي ممن يؤخذ عنه اللغة وقال الربيع بن سفيان : كان الشافعي عربى النفس عربى اللسان .

(١) بسلط من الجلد .

وقال أحمد بن أبي سريح : ما رأيت أحدا أفوه ، ولا أنطق من الشافعي وكان الجاحظ يقول فيه : كأن على لسانه الدر ..

ويقول أحمد بن حنبل فيه لبعض أصحابه : تعال حتى أريك اليوم رجلا لم تر عيناك مثله ، إن فاتك عقله فإن أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة .

وحدث أبو نعيم الاستراباذي ، سمعت الربيع يقول : " لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه ولو أنه ألف هذه الكتب على عريته - التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة - لم يقدر أحد على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضح للعوام " .

وقال الجاحظ : نظرت في كتب هؤلاء النبعة الذين نبغوا في العلم ، فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي (الشافعي) كان في كلامه ينظم درا إلى در .

وقال الإمام أحمد : ما مس أحد بحيرة ولا قلما إلا وللشافعي في عنقه منة ، وقال الذهبي : " كان حافظا للحديث بصيرا بعلله ، لا يقبل منه إلا ما ثبت عنده ، ولو طال عمره لازداد منة " .

واتصل الأصمعي بالشافعي يأخذ عنه شعر الشنفرى وشعر هذيل ويتعلم منه روايته وشرحه وفصيحته وغريبه ، وروى أبو عثمان المازني قال : سمعت الأصمعي يقول : قرأت شعر الشنفرى على الشافعي بمكة .

وحكى الحسين بن أحمد البيهقي الفقيه ببغداد قال : سمعت حسان بن محمد يحكى عن الأصمعي أنه قال : صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد ابن إدريس الشافعي ، قال : وحكى لنا مصعب الزبيري قال : كان أبي والشافعي يتناشدان ، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظا .

ويقول عبد الجبار الجومرد في كتابه " الأصمعي " رواية عن (المزهر للسيوطي) أنه درس ديوان الشاعر الجاهلي الشنفرى وشعر بني هذيل في مكة على الإمام محمد ابن إدريس صاحب المذهب الشافعي ثم قال : والظاهر إنه درس ذلك في أواخر أيامه وهو مسن ، في حين كان أستاذه أصغر منه سنا .

وحدث الصولي عن المبرد أنه قال : كان الشافعي من أشعر الناس وآدب الناس وقال ابن رشيقي : أما محمد بن إدريس الشافعي فكان من أحسن الناس لغتنا في الشعر .

والشافعي في لغته كلها معجب فاتن ، وقال ابن هشام صاح السيرة : جالست الشافعي زمانا فما سمعته تكلم بكلمة إلا اعتبرها المعتر ، لا يجد كلمة في العربية أحسن منها وقال ابن هشام أيضا : الشافعي كلامه لغة يحتج بها ، وقال : كانت لغته فتنة . وحدث عنه قال : كان قوم من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعي معنا ويجلسون ناحية قال : فقلت لرجل من رؤوسائهم : إنكم لا تتعاطون العلم (أى الفقه) فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : نسمع لغة الشافعي .

ومع علو لغة الشافعي في كل أقواله فإن شعره سهل ممتنع ، ولعلك إذا قست قطعة من نثره بقطعة من شعره بدأ لك الفرق بين اللغتين ، فإنه في النثر يختار أجزل الألفاظ ، ويميل إلى الغريب الصعب .

(٤)

قرأ الشافعي كتب أبي حنيفة (١٥٠ هـ) ، وأصحابه : أبي يوسف (١١٣ - ١٨٣ هـ) ومحمد بن الحسن (١٢٢ - ١٨٩ هـ) : وأملى مذهبه القلم في بغداد ، وكان قد ذهب إليها عام ١٨٤ هـ ، ثم زارها ثانية عام ١٩٥ هـ .

وعاد إلى مكة عام ١٩٧ هـ ، ولم يلبث أن يتركها إلى بغداد ، فدخلها للمرة الثالثة عام ١٩٨ هـ ، ليقيم به عدة أشهر ، يرحل بعدها إلى مصر الفسطاط ، و إلى جامعة الفسطاط ، في رحلته الخالدة ، التي جاءت في نهايات حياته .

وفي مصر الفسطاط كانت قد نشأت مدارس فقهية كثيرة ، ففيها نبغ عبد الله بن وهب (١٢٤ - ٢٢٠ هـ) أحد الأئمة المجتهدين ، والليث بن سعد (٩٣ - ١٧٥ هـ) فقيه مصر وإمامها ومحدثها ، ومن تلامذة الليث : إسحاق ابن الفرات (٢٠٤ هـ) وإسحاق بن بكر (٢١٨ هـ) . وحل الشافعي بالفسطاط ، فقاد حركة فقهية جديدة ، كان لها صداها العميق في العالم الإسلامي

وكان أهل مصر يعتمدون على فتاوى عبد الله بن مسعود (٣٦ هـ) وتلاميذه من التابعين ، وأهل البصرة يعتمدون على فتاوى أبي موسى الأشعري وأنس بن مالك من الصحابة ، والحسن البصري .

وعلى فتاوى ابن سيرين (١١٠ هـ) من التابعين ، وأهل الشام يتبعون فتاوى معاذ

بن جيل (- ٢٨ هـ) وعبادة بن الصامت (- ٣٤ هـ) من الصحابة ، وعمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) وأضرابه من التابعين .
وظهر أعلام من الفقهاء المشرعين ، الذين كانت لهم آراء ومذاهب في التشريع الإسلامي وفي مقدمتهم :

- سعد بن المسيب بالمدينة (- ٩٤ هـ) .
- عروة بن الزبير بالمدينة (- ٩٤ هـ) .
- سفيان بن عيينة بمكة (١٩٨ هـ) .
- ابن أبي ذئب .
- ابن جريج (- ١٥٠ هـ) .
- عكرمة مولى ابن عباس (١٠٧ هـ) .
- الإمام الزهري (٥١ - ١٢٥ هـ) .
- ربيعة الرأي (١٣٦ هـ) .
- عبد الرحمن بن مهدي (١٣٥ - ١٩٨ هـ) .
- إبراهيم النخعي بالكوفة (- ١٩٦ هـ) .
- الحسن البصري بالبصرة (- ١١٠ هـ) .
- سفيان الثوري بالكوفة (١٦١ هـ) .
- الليث بن سعد بمصر (٩٣ - ١٧٥ هـ) .
- الإمام الأوزاعي بالشام .

وتجمعت المذاهب التشريعية في تيارين أو مدرستين كبيرتين : مدرسة أصحاب الحديث ومدرسة أصحاب الرأي .

(٥)

ولما وفد الشافعي على مصر أملى فيها ، في جامع القسطنطين ، على تلاميذه كتبه الجديدة التي يجمعها كتابه الخالد " الأم " الذي حمل مذهبه الجديد ، وهو المذهب الذي وصل إليه بإجتهاده في مصر .

وأساس مذهبه أن الأصل هو القرآن والسنة ، ثم القياس فالإجماع . يقول الكرايسسي (٢٠٤ هـ) : " ما كنا نلرى ما الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ،

حتى سمعنا الشافعي يقول ذلك " . والسنة الصحيحة عند الشافعي تلى القرآن الكريم ، وقد كان يقول : " إذا صح الحديث فهو مذهبي " .

وقد دافع دفاعاً قوياً عن العمل بخير الواحد الصحيح ، مما نال عليه حظاً كبيراً عند أهل الحديث ، ولذا سماه أهل بغداد " ناصر السنة " .

وقال محمد بن الحسن فيه : " إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فلبسان الشافعي " وقال الزعفراني : " كان أصحاب الحديث رقوداً حتى جاء الشافعي فأيقظهم فتيقظوا " .

وقد ترك الشافعي الإستحسان الذي قالت به الأحناف والمالكية ، بل لقد أنكره ، ولم يقل بالقياس إلا إذا كانت علته منضبطة ، ورد المصالح المرسلة ، وأنكر الإحتجاج بعمل أهل المدينة ، وفتح باب الإجتهد على مصراعيه واسعاً . وهو بذلك يجمع بين فقه مدرسة أهل الرأي وفقه مدرسة أصحاب الحديث .

وكتابه " الرسالة " تحمل أبوابه أصول دفاعه عن السنة وحديث الواحد وشروط صحة الحديث والخبر المرسل، ويقول تلميذه المزني (١٧٥ - ٢٦٤ هـ) قرأت كتاب الرسالة للشافعي خمسمائة مرة ، وما من مرة منها إلا واستفدت فائدة جديدة لم أستفدها في الأخرى . وبالرسالة وضع الشافعي علماً كاملاً ، هو علم أصول الفقه ، وقد عاصر الشافعي الإمام أحمد (١٦٤ - ٢٤١ هـ) الذي عرف بشدة اعتماده على الرواية ولقد أذهلت الرسالة " للشافعي الإمام أحمد وغيره من جلة العلماء كابن مهدي الذي قال فيها بعد أن قرأها : لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني .

(٦)

وفي مصر الفسطاط دون كتب الأمام ابن إدريس الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) تلاميذه المصريون : المزني ، البويطي ، يونس بن عبد الأعلى ، الربيع الجيزي ، الربيع بن سليمان المرادي ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم . (١٧٥ هـ) وفي مقدمتهم الرسالة " و " الأم " وكان الشافعي قد أملاهما على تلاميذه في حلقة بجامعة الفسطاط .

ولم يزل الشافعي مقيماً بالفسطاط ناشراً للعلم ، ملازماً للتدريس بجامع عمرو ، " أو بجامعة الفسطاط " ، كما يقول

السيوطي في كتابه (حسن المحاضرة) (١٢٢ : ١) طبعة الشرفية .
وفي جامع عمرو " جامعة الفسطاط " كان ابن إدريس الجليل يجالس العلماء
والأدباء والنقاد الشعراء ورجال البلاغة والبيان ، ويجالس جماهير الناس ، مع
مرضه المزمن الذي عذبه طويلا ، وهو داء " البواسير " ، وكان في حلقته عالم اللغة
العميق الإطلاع على كنوزها ، ورواية الشعر الجيد المختار ومؤرخ الأحداث
الموهوب الذكي .

وفضلا عن الرسالة التي وضع بها علم أصول الفقه ، والتي كتبها وأملأها على
تلاميذه في جامعة الفسطاط ، ألف في الفسطاط كتاب " أحكام القرآن " وكتاب
" إختلاف الأحاديث " ، وكتاب " إبطال الإستحسان " . وكتاب " جماع العلم "
وكتاب " القياس " وكتاب " الرد على محمد بن الحسن " وكتاب " إختلاف
مالك والشافعي " وكتاب " إختلاف علي وعبد الله بن مسعود " ، وكتاب " ما
أختلف فيه أبو حنيفة وابن أبي ليلى عن أبي يوسف " ، و " خلافاً لابن عباس " و
" سير الأوزاعي " ، وكتاب " مسند الشافعي " .. أما كتابه " الحجة " فقد ألفه في
بغداد ..

وفي آخر عمره تزوج الشافعي أم ولده " دنانير " بعد وفاة زوجته حميدة ،
وأنجب من دنانير ابنه ، " أبا الحسن " عام ٢٠٢ هـ . وقد خصص له مرضعة
أندلسية اسمها " فوز " وبذلك كان له ولدان : أبو عثمان محمد ، أبو الحسن علي ،
وبنتان ، هما زينب وفاطمة . وهؤلاء هم الذين مات عنهم هذا الإمام الجليل .

وهكذا أفاد الشافعي الناس والمتعلمين والمثقفين فوائدها جليلة ، وقد ظل يكتب
ويقراً ويدرس ، والمرض يحاصره حتى سقط القلم من يده ، وأستأثرت به رحمة الله
تعالى في داره بالفسطاط (١) يوم الجمعة ، التاسع والعشرين من رجب عام ٢٠٤ هـ .
رحمه الله تعالى رحمة سابعة جزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

(١) كان الرائد الأول في الكشف عن معالم الفسطاط الأثرى المصري (علي بهجت) (١٨٥٨ - الجمعة
مارس ١٩٢٤) ، فله وحده يعود الفضل الأكبر في التقيب عن الفسطاط أول عاصمه إسلامية في مصر ،
حيث كشف عن حي كبير من أحيائها ، وعثر على آثار كثيرة نادرة .. إلى أنه هو الذي اكتشف عقد زواج
الجنرال مينو من السيدة زبيدة الرشيدى حيث عثر على صورته في محكمة رشيد الشريعة عام ١٨٩٨ م
وله كتاب عن الفسطاط صدر في باريس عام ١٩٢١ ، وقد رثاه أمير الشعراء أحمد شوقي بمراثية بليغة .